خواطر في طريق الدعوة

متولي موسى

إنّ الذي يرصد ما سجّلته أقلام الدعاة في القرن الهجري المنصرم ، في صورة أبحـــاث أو مقـــالات في المجـــلات الإسلامية والنشرات والدوريات ، وما صدر من كتب ومجلدات .. يتحقق من وجود مفكّرين إسلاميين ليسوا بالقليل ! .. كما أنّ الذي استمع ويستمع لما يقال في المؤتمرات الإسلامية والندوات واللقاءات التي تعقد في بقاع شتى والذي يحصي ما سجّل من هذه المحاضرات ووزّع ويوزّع في أماكن شتى بأعداد كبيرة ، يتبيّن أنّ هناك متحدّثين بالإســـلام ليسوا بالقليل ! .. ومن يتردّد على المساجد ويشاهد من يرتادها من المصلّين الذين تفيض أعين الكثير منهم بالـــدمع أثناء الاستماع للأحاديث الدينية ، يتيقّن بوجود أعداد هائلة من المسلمين المصلّين ! .. وهذه كلّها وأمثالها ظـــواهر مشهودة في حياتنا نحن المسلمين !!!

ورغم وجود هذا العدد الكبير من المفكرين والمتحدثين والقارئين والمستمعين والمصلّين مـــن المـــسلمين .. إلاّ أن الإنسان لا يجد الإسلام كمنهج للحياة يطبّق في حياة المسلمين وواقعهم ، بل يراه غريباً كلّ الغربة علـــى مـــستوى الحكم والمؤسّسات وعلى مستوى العلاقات والمعاملات وعلى مستوى التعليم والإعلام .. بل لا أبـــالغ إذا قلـــت إنّ الإسلام غريب على كلّ المستويات

وتبرز هنا مشكلة حقيقية ، تتمثّل أولاً في الانفصال الظاهر بين الإسلام والمسلمين ، وثانياً في الانفـــصال الـــذي يمزّق شخصية المؤمن في حياته إلى قطاعين ، يخضع في أحدهما —وهو قطاع ضئيل– لمنهج الله تعالى ، ويخضع في الثاني —وهو يمثّل باقي جوانب الحياة– لمناهج أرضية وضع قواعدها أرباب متفرّقون على هذه الأرض ، حسب أهـــوائهم ودون الرجوع إلى الله تعالى وإلى ما بلّغ محمد ﷺ

وباستقراء التاريخ نجد أنّ هذه المشكلة نشأت على الزمن نتيجة الابتعاد التدريجي عن منهج الله تعالى ، والضعف التدريجي للصلة به عزَّ وجلَّ ، والمحاولات المستمرّة لتبرير الأعمال والبحث عن مخارج ما من تحمّل تبعة القول الثقيـــل الذي ألقاه الله تعالى على محمّد ﷺ

وأعتقد أنّ المنطلقات لحلّ هذه المشكلة هي : تجديد الصلة بالله عزَّ وجلَّ ، وصدق الإيمان ، والاستعداد لتحمّـــل التبعة

تجديد الصلة بالله

لا يكفي بالنسبة للحياة البشرية مجرّد وجود المنهج مقروءاً أو مسموعاً فقط ، دون أن يترجم هذا المنهج إلى واقع يعاش .. فإن انعدمت الصلة بين الكلام والعمل أصبح الكلام هذرا . ولا بدّ إذن أن يصل الإنسان إلى وضع نفـــسي يكون قادراً به أن يسيطر على غرائزه وشهواته لتغيير نفسه إلى الأفضل .. وهكذا يستتبع كلامُ الإنسان عن المنـــهج الإرادةَ والعمل من جانبه ، وتنشأ العلاقة بين الكلمات والوقائع

وليس الوصول إلى هذا الوضع من شأن (علم الكلام) ، ولكنّه من شأن (التوبة النصوح عن كل ذنب ســـلف أو قصور والرجعة الصادقة إلى الله عزَّ وجلَّ قلباً وفكراً وعلماً وعملاً وسرّاً وجهرا) .. أو ما يمكن التعبير عنه بـ (تجديـــد الصلة بالله عزَّ وجلَّ) ..

ولعلّ هذه الصلة القوية بالله هي التي جعلت بلالاً أثناء التعذيب يهتف من أعماق قلبه (أحدٌ أحدْ) ، فقد تحرّرت روحه من سيطرة الغرائز والشهوات وارتبطت بالواحد الأحد .. وهذه الروح هي التي جعلت ماعز والغامدية يأتيان رسول الله ﷺ فيطلبان منه أن يطهّرهما من فاحشة الزنا بإقامة الحدّ عليهما

إنّ الله عزَّ وجلَّ لا يصنع بنفس الإنسان ، من تزيين للهدى أو الضلال ، ومن شرح للصدر أو تضييق ، ومن طبع عليه أو كشف الغطاء عنه[1] .. كلّ ذلك لا يصنعه الله عزَّ وجلَّ بنفس الإنسان ابتداء ، بل جزاء وفاقاً لمـــا يعملـــه الإنسان نفسه من تعطيل لوسائل الهداية ، السمع والبصر والفؤاد أو تشغيلها ، وكبح للشهوات أو إرسالها . وكما أنّ الله عزَّ وجلَّ يخلق الصدأ في السنان المهملة ويجعل الحدّة والمضاء في السنان المستعملة ، كذلك إنّما يختم الله على قلب المتكبّر وسمعه وبصره ، الذي أغمض عين بصيرته ، وأعرض عن الداعي و لم يفكّر بدعوته .. وإنما يعطي الله الهدى لمن توجّه إليه بقلبه وفكّر فيه بعقله ، فيشرح له صدره وييسّر له أمره ، ويمنحه السداد والتوفيق .. فهل نحن عازمون على تجديد الصلة بالله عزَّ وجلّ ؟

صدق الإيمان

إنّ الإيمان الصادق ينعكس في حياة المؤمن وأخلاقه ، وقد لفتنا الحقّ تبارك وتعالى إلى ذلك في آية جامعة فقال : **﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّـــهِ وَالْيَـــوْمِ الآخِـــرِ وَالْمَلائِكَـــةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَـــابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَـــأْسِ أُولَئِـــكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾**[2] ..كما بيّن الله تعالى من هم المؤمنون الصادقون في ردّه على الأعراب الذين

قالوا آمنّا فقال : ﴿ ... **قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[٣] .. ويقول سيّد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية : (ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية : إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - **ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** - .. إنه ليس مجرّد عبارة ، إنّما هو لمسة لتجربة شعورية واقعية وعلاج لحالة تقوم في النفس حتى بعد إيمانها .. ﴿ **ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ ، وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى .. ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ... ﴾ [فصلت : ٣٠] فعدم الارتياب والاستقامة على قولة ﴿ **رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ .. تشير إلى ما يعتور النفس المؤمنة -تحت تأثير التجارب القاسية والابتلاءات الشديدة- من ارتياب ومن اضطراب . وإنّ النفس البشرية لتصدم في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازع تزعزع ، والتي تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظلّ موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله)[٤] .. وأتساءل : أين هؤلاء الصادقون من المؤمنين في هذه الأيام وكم عددهم ؟

إنّ سنّة الله تبارك وتعالى في معرفة الصادقين والكاذبين من المؤمنين اليوم هي نفسها التي طبّقت في حياة الناس من قبل ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾[٥] .. والنصر في النهاية للذين آمنوا .. واحتملوا البأساء والضرّاء وصبروا على الأنواع المختلفة من الابتلاء ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾[٦] .. ورسوله الله ﷺ يقرّر : « **أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل** »[٧]

وإنّ من صدق الإيمان الثقة في عدالة الله والثقة في أنّ من يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره .. وقد بيّن الله عزَّ وجلَّ لنا في سورة الأحزاب صنيع المعوّقين وعمل المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ثمّ عقّب على ذلك بقوله : ﴿ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ... ﴾[٨] .. كما أنه عزَّ وجلَّ أنكر على المؤمنين موقفهم الخائر حينما عزم الأمر وظهر الخطر فلم يعتصموا بصدق الإيمان وظهرت آثار المرض والنفاق في أعمالهم ، وبيّن لنا الموقف الأول حتى نتمثّله فقال سبحانه : ﴿ ... **فَأَوْلَى لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾[٩] .. نعم لو صدقوا الله لكان خيراً لهم ، فهل نحن اليوم -وقد عزم الأمر وجدّ الجدّ- عازمون على تغيير أحوالنا وواقعنا فنصدق مع الله عقيدة وسلوكاً لنكون أهلاً لرضوانه في الدنيا والآخرة وللفوز بإحدى الحسنيين ؟ ..

تحمل تبعة القول الثقيل

إنّ الله عزَّ وجلَّ الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره الكافرون ، هو الذي قال لرسوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ**

تَرْتِيلاً﴾ [١٠] ولئن تساءل إنسان لم هذا كلّه ؟ .. لم سهر الليل وقراءة القرآن ؟ .. والإجابة من الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۞ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً** ﴾ [١١] .. ولا شكّ أنّ الثقل هنا ليس في ذات الوقت القول ، فقد يسّر الله القرآن للذكر ، ولكنّ الثقل هنا هو في التبعة التي يلقيها هذا القول على من يؤمن به .. وهذا يحتاج إلى التهيّؤ له بقيام الليل والسهر الطويل وترتيل القرآن ..

ويقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ... ﴾ [١٢] .. ومن الغفلة أن يتصوّر بعض الدعاة أنّ دور الداعية هو (تبليغ) دعوة الإسلام للآخرين دون تحقيق شروط هذا التبليغ في نفسه .. ولا تتحقّق دون أن يكون هو على بصيرة من هذا السبيل ، هنا يتجلّى دور المؤمنين الصادقين الذين قرّروا تجديد الصلة بالله ، بأنّ عليهم أن يحققوا انتصارين في وقت واحد ، أولهما في ذات النفس ، بالانتصار على الشهوات والغرائز ، والثاني خارجي ، بالانتصار على الباطل .. وسنّة الله هي التي جعلت الانتصار الداخليّ شرطاً لتحقيق الانتصار الخارجي ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ... ﴾ [١٣]

وليتذكّر أتباع محمّد ﷺ الذي زكّاه ربّه بقوله ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [١٤] .. قد كان خلقه القرآن ، وهذا مقياس تغيير النفس ، فهل نحن على تغيير ما بأنفسنا ليغيّر الله بنا ما بمجتمعاتنا عازمون ؟ ..

وينبغي أن يستقرّ في حسّ الدعاة إلى الله ، أنّه إذا كان المسلم في حياته الدنيوية في حاجة إلى الصبر والثبات للتغلّب على العقبات .. فهو كداعية أحوج ما يكون إلى ذلك ، ولئن كان صاحب الحرفة معرّضاً لليأس وفي حاجة إلى التشجيع وتجديد الوسائل لتحقيق الأهداف ، فإنّ أهدافهم في الأصل قريبة والعقبات التي تحول بينهم وبينها غالباً ما تكون سهلة ، تحتاج للتغلّب عليها إلى اليسير من الجهد والصبر .. أما الدعاة إلى الله فلهم وضع آخر

إنهم يتعاملون مع النفوس البشرية وهي أعصى من المادّة ، وأقدر على المقاومة وعلى الزيغ والانحراف ، كما أنّ الدعاة لا يحصلون –كصاحب حرفة– على عائد ماديّ ملموس يشجّع على الاستمرار في بذل الجهد واستمرار العمل .. وهنا لا بدّ أن تتجلى فاعلية عقيدة الإسلام في حياة الداعية ، وأن تظهر في حياته حلاوة الإيمان ، ليثبت على الطريق ولو انصرف الناس جميعاً من حوله .. فهو يريد أعظم من كلّ الدنيا وما فيها ، يريد رضوان الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ... ﴾ [١٥] .. « **ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ** »[١٦]

والقاعدة الأساسية التي تحكم عمل المسلم هي « ... **أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** ... »[١٧] وهذه مرحلة الإحساس التي يقيم عليها الإسلام تشريعاته ممّا يرتّب على الداعية بذلك أقصى الجهد الإنساني مع شعوره الحقيقيّ الدائم أنّ الله مطّلع عليه يراقبه في أداء العمل ، فإذا أضيف إلى ذلك يقين المؤمن أنّ

الحسنة مضاعفة الأجر ، فإنّ هذا يحفز العاملين للإسلام إلى الحركة الإيجابية الدائمة التي يرضى عنها الله ، وإلى الصبر على ما يقوله بعض الناس أذى لهم ، فيهجرونهم هجراً جميلا ..

الهوامش :

---

(١) تدبّر قول الله تعالى ﴿ ... **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيـــمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ... ﴾ [الحجرات : ٧] وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًـــا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ... ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ويقول تباركت أسماؤه في آية جامعة : ﴿ ... **كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ... ﴾ [الأنعام : ١٠٨]

(٢) [البقرة : ١٧٧] .

(٣) [الحجرات : ١٤-١٥]

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب ، طبعة دار الشروق ، المجلد السادس صفحة ٣٣٥٠

(٥) [العنكبوت : ٢-٣]

(٦) [البقرة : ٢١٤]

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه

(٨) [الأحزاب : ٢٤]

(٩) [محمد : ٢٠-٢١]

(١٠) [المزمل : ١-٤]

(١١) [المزمل : ٥-٧]

(١٢) [يوسف : ١٠٨]

(١٣) [الرعد : ١١]

(١٤) [القلم : ٤]

(١٥) [التوبة : ١١١]

(١٦) حديث صحيح رواه البخاري

(١٧) جزء من حديث صحيح رواه مسلم